مسالة الإمامة عند مهدي الموحدين :ابن تومرت

د.حمودي ولد حمادي، جامعة نواكشوط

ملخص

يتناول هذا البحث مسالة الإمامة عند ابن تومارت وهي مسالة تناولها المهدي في كتابه ''أعز ما يطلب '' حيث أسهب في الكلام عن الإمامة وعن الإمام المعصوم، وعن المهدي وعلاماته، وعن قيام الطائفة التي تقوم في آخر الزمان لتقاتل في سبيل الحق. ويمكننا أن نعتبر هذه المسالة لب الكتاب، ولب مذهب ابن تومرت كله، ولب دعوته السياسية كلها، فإن الإمامة الدينية، هي الشعار السياسي الذي انتحله ابن تومرت، دعامة لزعامته وسلطانه، ونظرية المهدي المنتظر، هي الثوب الروحي الذي اتشح به، لتأييد شرعية إمامته وقدسيتها.

ونحن نعرف أن الإمامة هي شعار الدعوة الشيعية، الديني والسياسي، وأنها تخص بها آل البيت دون سواهم، وعلى كر العصور. ولكن ابن تومرت، في تمسكه بنظرية الإمامة، يبدو مستقلا، بعيداً عن الدعوة الشيعية، وممثلا لدعوة خاصة، وإن كان في نفس الوقت يحرص على أن ينتسب إلى آل البيت، حتى تتوفر فيه شرعية الإمامة، وهو يؤكد أهمية الإمامة كركن جوهري من أركان الدين، ووجوب اعتقادها والخضوع لها .

وقد استطاع المهدي أن يقنع بأسلوبه القوي المنذر، مجتمعاً يسوده الجهل، وتسيطر عليه الخرافة، فكانت أقواله في الإمامة وتعاليمه تنساب إلى هذا المجتمع الساذج، كقرآن جديد ، ثم إن هذه الإمامة لابد أن تتوج بصفة خاصة تؤكد من شرعيتها وتزيد في قدسيتها، وتجعلها أقرب إلى مراتب النبوة، وتلك هي صفة المهدي المنتظر.

Abstract:

This paper discusses *Ibn-tumart's* view on "*Imamah*" or the ultimate leadership in Islam. In his book "أعز ما يطلب" which means the most precious

sought-after, He expressed his views on "*Imamah*" and the impeccable *Imam* or leader. He also expressed his views about "*Mahdi*" and his peculiar symptoms and the people who will fight for truth in the last times before the end of the world. This were the main issues in the book and in fact, the main arguments of *Ibn-tumart's* revolutions. The religious leadership was *Ibn-tumart's* source of authority's allegations either spiritually or politically. This *Imamah* argument was also the best resort for several religious sections chief of which is the *Shi'ats*. Like the *Shi'at*, *Ibn-tumart*portrayed himself as a descendant of prophet to legitimate his allegations as the waited *Mahdi*. Also like the *Shi'ats*, he emphasized on the doctrine of *Imamah* as one the pillars of religion. Nevertheless, he didn't affiliate himself to the *Shi'at* in fact, he created a new section altogether. Provided the prevailing situation of ignorance and less sophistication of his time, *Ibn-tumart* was able to draw peoples' loyalty as much as his sayings were considered as new revelation for he alleged that he is the *Mahdi* himself.

المقدمة

تعتبر مسالة الإمامة مبحثاً قديماً ، بل ''هي أول مسألة خلافية واجهت المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم''1 كما يذكر الأشعري. وأعظم خلاف بين الأُمة'' إذ ما سُلَّ سيفٌ في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان'' على حدِّ قول الشهرستاني **2**

وقد تناولها ابن تومارت في فصل من كتابه ''أعز ما يطلب '' حيث أسهب في الكلام عن الإمامة وعن الإمام المعصوم، وعن المهدي وعلاماته، وعن قيام الطائفة التي تقوم في آخر الزمان لتقاتل في سبيل الحق. ويمكننا أن نعتبر هذا الفصل لب الكتاب، ولب مذهب ابن تومرت كله، ولب دعوته السياسية كلها، فإن الإمامة الدينية، هي الشعار السياسي الذي انتحله ابن تومرت، دعامة لزعامته وسلطانه، ونظرية المهدي المنتظر، هي الثوب الروحي الذي اتشح به، لتأييد شرعية إمامته وقدسيتها.

ونحن نعرف أن الإمامة هي شعار الدعوة الشيعية، الديني والسياسي، وأنها تخص بها آل البيت دون سواهم، وعلى كر العصور. ولكن ابن تومرت، في تمسكه بنظرية الإمامة، يبدو مستقلا، بعيداً عن الدعوة الشيعية، وممثلا لدعوة خاصة، وإن كان في نفس الوقت يحرص على أن ينتسب إلى آل البيت، حتى تتوفر فيه شرعية الإمامة، فما هي الإمامة عند ابن تومرت، وهل كان شيعيا في تناوله لهذه المسألة أم أن فكره كان تلفيقيا يمتد إلى كافة المذاهب الإسلامية بروح اجتهادية تتعدى الفروع إلى الأصول؟

يعرض لنا ابن تومرت نظرية الإمامة وخصائصها حين يقول:

"هذا باب في العلم، وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة، وهي ركن من أركان الدين، وعمدة من عمد الشريعة، ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة. ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق في أرضه من عاد إلى نوح، ومن بعده إلى إبراهيم ..ولا يكون الإمام إلا معصوماً من الباطل ليهدم الباطل، لأن الباطل لا يهدم الباطل، وأن يكون معصوماً من الضلال، لأن الضلال لا يهدم الضلال ..وأن يكون معصوماً من الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبته، وأن يكون معصوماً من البدع، لأن المبتدع لا يهدم الكذب بل يثبته، وأن يكون معصوماً من العمل بالجهل، لأن الجاهل لا يهدم الجهل، وأن يكون معصوماً من الباطل لأن المبطل، لا يهدم الباطل، كما لا تدفع النجاسة بالنجاسة، وكما لا تدفع الظلمة بالظلمة، كذلك لا يدفع الفساد بالفساد، ولا يدفع الباطل بالباطل، وإنما يدفع بضده الذي هو الحق، لا يدفع الشيء إلا بضده، ولا تدفع الظلمة إلا بالنور، ولا يدفع الضلال إلا بالهدى، ولا يدفع الجور إلا بالعدل، ولا تدفع المعصية إلا بالطاعة، ولا يدفع الاختلاف إلا بالاتفاق، ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولي الأمر، وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم "[3]

ثم يعود ابن تومرت فيؤكد أهمية الإمامة كركن جوهري من أركان الدين، ووجوب اعتقادها والخضوع لها في قوله:

"والإمامة هي عمدة الدين وعموده على الإطلاق في سائر الأزمان، وهو دين السلف الصالح، والأمم السالفة إلى إبراهيم وما قبله، فاعتقادها دين، والعمل بها دين، والتزامها دين، ومعناها الإتباع والاقتداء، والسمع والطاعة، والتسليم، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، والأخذ بسنة الإمام في القليل والكثير"[4]

ولا يمكن أن تكون ثمة تأكيدات أخطر من هذه وأشد فعلا، وأبعد أثراً في النفوس، لتأكيد الزعامة الدينية والسياسية، والانضواء تحت لوائها، والإذعان لسلطانها. وقد كان المهدي يخاطب بأسلوبه القوي المنذر، مجتمعاً يسوده الجهل، وتسيطر عليه الخرافة، فكانت أقواله وتعاليمه تنساب إلى هذا المجتمع الساذج، كقرآن جديد. كيف لا وهو يؤكد بأنه "لا يكذب بهذا، إلا كافر أو جاحد أو منافق أو زائغ أو مبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق، أو رذل أو نذل، لا يؤمن بالله واليوم الآخر" ثم إن هذه الإمامة المطلقة الواجبة الطاعة في كل زمان ومكان، لابد أن تتوج بصفة خاصة تؤكد من شرعيتها وتزيد في قدسيتها، وتجعلها أقرب إلى مراتب النبوة، وتلك هي صفة المهدي المنتظر، وهي نظرية يرجعها البعض إلى عصر النبي ذاته. فهنالك طائفة من " الأحاديث " تشير إليها. وهنالك أيضاً طائفة من الأقوال المأثورة تنسب لجماعة من أكابر الصحابة. ولكن هذه الأحاديث والأقوال، موضع كثير من الجدل والريب، وقد استغلت هذه النظرية من طرف الشيعة على كر العصور، واتخذوها سبيلا إلى تحقيق السلطان السياسي. وخلاصة هذه الأحاديث والأقوال، "إنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من آل البيت، يؤيد الدين ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويعيد مجد الإسلام ودولته، ويسمى بالمهدي" و أن هذا المهدي يخرج في آخر الزمان " فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ". وقد كان قيام الدولة الفاطمية الشيعية بإفريقية ثم بمصر، في أوائل القرن الرابع الهجري،

أعظم وأروع استغلال لهذه العقيدة. وهذا الثوب القدسي - ثوب المهدي المنتظر - هو الذي اعتزم محمد بن تومرت أن يتشح به، وأن يتوج به إمامته وسلطانه السياسي. ومن ثم فإنا نراه، بعد أن يحدثنا عن أهمية الإمامة. وكونها ركن الدين الركين، يعرض لنا نظرية المهدي بقوة وحماسة. وهو يستهل كلامه بوصف مثير لأحوال العصر الذي تلا عصر النبوة والخلفاء الأربعة، وما ساد فيه من ضروب التفرق والهوى والفتن، وهو العصر الذي "يذهب فيه العلماء، ويظهر الجهال، ويذهب الصالحون، وتبقى الحثالة، ويذهب الأمناء وتبقى الخونة، وتذهب الأئمة، وتظهر المبتدعة، ويذهب الصادقون، ويظهر الدجالون، ويذهب أهل الحقائق، ويظهر أهل التبديل والتغيير والتلبيس والتدليس، حتى انعكست الأمور، وانقلبت الحقائق وعطلت الأحكام، وفسدت العلوم، وأهملت الأعمال، وماتت السنن، وذهب الحق، وارتفع العدل، وأظلمت الدنيا بالجهل والباطل، واسودت بالكفر والفسوق والعصيان، وتغيرت بالبدع والأهواء، وامتلأت بالجور والظلم والهرج والفتن ". ثم جاء المهدي في زمان الغربة، في الوقت الذي عكست فيه الأمور، وقلبت الحقائق، وبدّلت الأحكام "وخصه الله بما أودع فيه من معاني الهداية، ووعده قلب الأمور عن عاداتها، وهدمها بهدم قواعدها، ونقلها إلى الحق بإذن الله، حتى تنتظم الأمور على سنن الهدى، وتستقيم على منهاج التقوى، وينهدم الباطل من قواعده، وتنهدم بانهدامه فروعه، ويثبت الحق من أصله، وتثبت بثبوته فروعه، ويظهر العلم من معادنه، ويشرق نوره في الدنيا بظهوره، حتى يملأها عدلا، كما ملئت قبله جوراً، بوعد ربه كما وعد، وبفضله كما سبق، هذا ما وعد الله للمهدي، وعد الحق الذي لا يخلفه"[5]

وهذا المهدي، الذي تستحيل على يده شؤون العالم، من الفساد الشامل، والظلم المطبق، إلى الصلاح والعدل الشامل، "لا ند له في الورى" ولن يجد "من يعانده، ولا من ينازعه، ولا من يخالفه، ولا من يضاده"، ومن ثم فإن ابن تومرت يؤكد لأتباعه وأنصاره وجوب طاعة المهدي، والإيمان برسالته، والإذعان لمشيئته، والاستسلام لحكمه، وذلك بصورة مطلقة يعرضها لنا على

النحو الآتي: "فالعلم به واجب، والسمع والطاعة له واجب، وإتباعه والاقتداء بأفعاله واجب، والإيمان به والتصديق به واجب على الكافة، والتسليم له واجب، والرضي بحكمه واجب، والانقياد لكل ما قضى واجب، والرجوع إلى علمه واجب، وإتباع سبيله واجب، والاستمساك بأمره حتم، ورفع الأمور إليه بالكلية لازم"[6].

وليس ذلك فقط، فإن طاعة المهدي، والاستسلام إليه، إن هي إلا طاعة الله ورسوله ذاتها، "فإن سنة المهدي هي سنة الله ورسوله، وأمره أمر الله ورسوله، وطاعته طاعة الله ورسوله، والانقياد له الانقياد إلى الله ورسوله، وموافقته موافقة الله ورسوله، وتعظيم حرماته تعظيم حرمات الله ورسوله. هو أعلمهم بالله، وأقربهم إلى الله، به قامت السموات والأرض، وبه كشفت الظلمات، وبه تدفع الأباطيل، وبه تظهر المعارف، وبموافقته تُنال السعادة، وبطاعته تنال البركات"[7] أما ألئك الذين تسول لهم أنفسهم مخالفة المهدي، ومعارضته أو الشك في أمره، فويل لهم. ولم ينس ابن تومرت أن يتوعد هؤلاء بشر النكال. ذلك أن من ناوأ المهدي "فقد تقمع في الردى، وليس له التطرق إلى النجاة". ثم إن "أمر المهدي حتم، ومن خالفه يقتل، لا دفع له في هذا لدافع، ولا حيلة فيه لزائغ، ثبت بثبوت نصوص الكتاب، وقواطع الشرع، وبيان العلم، ودام ما دامت السموات والأرض بإذن الله الواحد القهار".

ومن المهم هنا أن نقارن بين نظرية ابن تومرت في الإمامة ومتعلقاتها بمثيلتها عند الشيعة، فالمتتبع لتاريخ المغرب الإسلامي يجد أن معظم الدول التي نشأت على أرضه وتطورت فيها قامت على أسس مذهبية بغية الإصلاح والانتقال من حال الظلم والفساد إلى حال العدل والصلاح، وهذا شأن قيام الخلافة الفاطمية إذ كانت الدعوة لأصحابها مبنية على التغيير والإصلاح ، ونفس الشيء يمكن أن نقوله عن خلافة الموحدين إذ بدأ المهدي بن تومرت دعوته في بلاد المغرب الأقصى مستغلا فساد الأمور في دولة المرابطين ليبدأ في تجميع الناس حوله بحجة التغيير إلى الأحسن سواء في الأمور الدينية أو الدنيوية .

الإمامة:

احتلت الإمامة أهمية عقدية عند الشيعة بشكل عام وعند الإسماعيلية بشكل خاص حيث اعتبرت أساس العقيدة لان الإمام هو الشرط الضروري للمعرفة ومن ثم العمل، وكذلك الأمر بالنسبة لابن تومرت حيث تقع نفس موقعها لدى الشيعة، فهي عنده تعني الإتباع والاقتداء والسمع والطاعة والتسليم وامتثال الأمر واجتناب النهي والأخذ بسنة الإمام في القليل والكثير كما يبدو جليا من آرائه التي أخذناها عن كتابه العمدة (اعز ما يطلب)، ولعل إبراز المهدي بن تومرت لعنصر الطاعة في تعريفه للإمامة يشير إلى مناط اهتمامه وتركيزه وتصوره لحقيقتها واقتناعه بوظيفتها، في الدور السياسي الذي كان يقوم به عمليا، وهذا ما يدل عليه قوله :"..... لا بد من العمود الذي قامت به السموات والأرض في سائر الأزمان في الدنيا وهو الإمام متى زال العمود خر السقف من فوق ومتى اتبع الحق أهواء الناس فسدت السموات والأرض، ومتى ضيع أمر الإمام أو عصي أو نوزع أو خولف أو أهمل ...أو عرض عنه في خردله ...فمتى كان شيء من ذلك عطل أمره و زال العمود وسقط السقف على الأرض..".

والإمامة عنده كذلك هي:" ركن الدين و عمدته و لا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان و مكان إلى أن تقوم الساعة , و اعتقادها دين و العمل بها دين والتزامها دين , و لا يكذب بهذا الأمر إلا كافر أو منافق أو ذائع أو مبتدع أو مارق أو فاجر أو فاسق أو رذل أو نذل لا يؤمن بالله و اليوم الآخر"، فالتكذيب بالإمامة عنده يؤدي إلى تعطيل الإيمان بالله و اليوم الآخر , وهو بهذا يعتبر من جنس العقائد لا من جنس الفـروع .

ويمكن أن نجمل أوجه الاتفاق بين المهدي والإسماعيلية في مسألة الإمامة في نقاط أهمها:

1. يعتبر الإسماعيلية وابن تومرت أن الإمامة من مسائل العقيدة لا من مسائل الفروع، وهي التي يقوم بها الدين ويصلح بها الأمر للمسلمين، وقد سبق بيان ذلك.

2. اتفق المهدي والإسماعيلية على وجوب الإمامة، وأن الدين متوقف في قيامه بين الناس وفي سيطرة أحكامه على الخلق على إمام يرعى قواعده ويعمل على تنفيذها .
3. اتفق المهدي والإسماعيلية كذلك على أن إقامة الإمامة تعتمد على عنصر أساسي يعتبر جوهرها وهو عنصر إتباع الإمام وطاعته والامتثال له، ووجوب الاقتداء بأفعاله والرجوع لعمله.

وابن تومرت في هذا الجانب من فكره يقترب كثيرا في هذه من التشيع، إلا انه يختلف عن الإسماعيلية في صرف الإمامة بعد الرسول صلى الله عليه و سلم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبنائه من فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم واعتقاد انه لا يجوز أن تخرج إلى غيرهم لأنها منصوصة فيهم دون غيرهم، وان أبا بكر وعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة من علي بن أبي طالب وبالتالي فهم لا يعترفون بخلافتهم ويكفرونهم ، فهو لا يرى أن الإمامة منصوصة عليهم، بينما نجد ابن تومرت يتفق في ترتيب الأئمة بعد الرسول صلى الله عليه و سلم مع أهل السنة ويعتبر أن الإمام بعده صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق اختاره للصلاة بالناس ورضيه لهم إماما في دينه، فكان أمينا في دينه، حفظ الإمامة و رعاها حق رعايتها، ثم خلفه عمر بن الخطاب في الإمامة فقام بها أحسن القيام وأطاعه الناس بالصفاء والمودة , ثم عثمان وعلي من بعدهما[8]

كما أن بن تومرت لم يدعي أن الأئمة يعلمون الغيب وأن لديهم علم الظاهر وعلم الباطن وأن علمهم يورث ولا يكتسب كما فعلت الشيعة، بل هو شخصيا جد واجتهد ورحل في طلب العلم إلى المشرق فدرس على كبار علماء عصره وألزم أتباعه منهجا تعليميا خاصا كونهم فيه وأسس عليه دولة الموحدين، كما أنه لم يذكر في مؤلفه "أعزما يطلب" أن الإمام يعلم الظاهر والباطن و أخفى، فاعتبر ذلك من الخصائص والصفات التي تنسب إلي الله عز وجل، كما يلاحظ فرق آخر وهو كون ابن تومرت قد ألف عدة رسائل موجهة إلى العامة وأخرى

إلى العلماء والخاصة يصف فيها منهجه و ينشر فيها علمه، والعكس تماما نجده عند الأئمة الإسماعيلية فهم ألصقت بهم صفة العلم من دون دليل مادي على ذلك، وحتى هذا العلم كان ينشر فقط أمام الخاصة أو العلية كما يقولون و لم يؤثر عنهم أي مخطوط أو كتاب يثبت اتصافهم بالعلم إلا ما نسب إلى المعز لدين الله الفاطمي أنه ألف كتابا سماه "تأويل الشريعة" لم تثبت نسبته تاريخيا.

العصمة:

والفكرة الثانية الذي ذهب فيه ابن تومرت مذاهب الشيعة هو إثبات العصمة للإمام على وجه القطع والصراحة، حيث يري وجوب أن يكون الإمام معصوما من الباطل والضلال والفتن والعمل بالجهل[9].

والعصمة عنده تتعلق بجانبين أشار إليها في قوله :"لا يصح الاتفاق إلا بإسناد الأمور إلى أولي الأمر وهو الإمام المعصوم من الباطل و الظلم " فالجانب الأول تتضمنه العصمة من الباطل وهي تعني عصمة الإمام في الأداء والتعاليم والمبادئ التي يدعو إليها ويبشر بها فهي كلها حق ولا يدخلها الباطل بحال من الأحوال كالكذب والجهل والابتداع وغيره من الطرق المؤدية إلى الخطأ.

والجانب الثاني تتضمنه العصمة من الظلم وهو يتعلق بسياسة الناس والقيام على شؤونهم وتدبير أمورهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقد بدا واضحا في كلامه الذي وجهه للأمير علي بن يوسف بن تاشفين في مجلس أحضره فيه للمناظرة فقال له:" إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها غير إني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأنت أول من يفعل ذلك فانك المسؤول عنه وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة وقد ظهرت بمملكتك المنكرات وفشت البدع وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها إذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به المسؤول عنه."

وإذا كان ابن تومرت قد وافق الشيعة الإسماعيلية في إلحاق صفة العصمة بالإمام فما هو موقع العصمة عند كل منهما؟

يرى الدكتور عبد المجيد النجار وهو من المتخصصين في فكر المهدي بن تومرت أن عصمة المهدي بن تومرت هي أقل درجة من عصمة الشيعة التي تتصف بالشمول والإطلاق كما مر بيانه في حين تتسع عصمة المهدي لبعض الأخطاء والمعاصي ويبدو أن ما ذهب إليه المهدي من العصمة ليس إلا تعبيرا عن الشروط التي اشترطها أهل السنة والمعتزلة في الإمام ولكنه عبر بتعبير اكتسى صيغة الغلو بفعل القسوة التي أحاطت به في دعوته كما هو الشأن في كثير من أفكاره المتعلقة بالإمامة ويستدل الدكتور عبد المجيد النجار على رأيه هذا بأدلة منها :

إن الشروط التي اجتمعت عليها الفرق من أهل السنة والمعتزلة والخوارج ترجع إلى نقطتين أساسيتين:

الأولى: بلوغ درجة من العلم تبوئ للاجتهاد في أصول الدين وفروعه.

والثانية: بلوغ درجة من العدالة تستجمع صفات الورع والاهتداء إلى وجوه السياسة وحسن التدبير.

وهاتان النقطتان تقابلان ذينك المناطين اللذين تعلقت بهما العصمة عند المهدي هما: العصمة من الباطل ويقابلها العلم، والعصمة من الظلم ويقابلها العدل[10].

والمهدي ينسب العصمة أحيانا إلى نفسه وأحيانا إلى الإمام بإطلاق وهو كما تقدم معنا جعل من سلسلة الأئمة الخلفاء الراشدين الأربعة , فيكون هؤلاء مشمولون بالعصمة التي نسبها إلى الإمام عامة ومن المستبعد أن ينسب إليهم عصمة حسب المفهوم الشيعي وقد تحدث عن أبي بكر وعمر مطولا ووصفهما بالعفة والورع وحسن السيرة ولم يشر إلى عصمتهما لا من قريب ولا من بعيد وهو ما يقوم دليلا على أنه لم يقصد بالعصمة مفهومها الشيعي و إن كان المهدي قد وافق الشيعة في إطلاق لفظ العصمة على الإمام، كما يقول ابن خلدون: "....و

لم يحفظ عنه فلتة في البدعة إلا ما كان من وفاقه الامامية من الشيعة في القول بالإمام المعصوم."[11] إلا أنه يريد المفهوم اللغوي فقط دون اصطلاح الشيعة، فيكون بذلك ما يذهب إليه من أن الإمام لا يكون إلا معصوما من الباطل ومن الظلم مقصودا به أن لا يكون إلا كافا عن الباطل والظلم، ويقترب بذلك من اشتراط أهل السنة للإمام العلم والعدالة ولكن التعبير بلفظ العصمة مع الإلحاح عليه والمبالغة فيه إلى جانب ما أحاط بشخص المهدي بعض أتباعه المفتونين به من تعظيم وما نسبوه إليه من كرامات وخوارق تصور العناية الإلهية به؛ جعل الدارسين والمؤرخين ينسبون إليه القول بالعصمة بالمفهوم الشيعي وهو ما عبر عنه ابن خلدون بالعبارة السابقة الذكر، واستدل ابن تومرت على العصمة بأن الإمام مهمته أن يقاوم الباطل والظلم و ينشر الحق والعدل، والباطل والظلم لا يرتفعان إلا بالحق والعدل ولذلك وجب أن يكون الإمام معصوما من الظلم و الباطل حتى ينشر الحق والعدل.

ويصل النجار في خاتمة دفاعه عن قول ابن تومرت باشتراط عصمة الإمام إلى القول: "ويبدو من القرائن السابقة أن هذه العصمة التي ذهب إليها المهدي هي درجة وسطى بين عصمة الشيعة التي أثبتوها للإمام وبين شروط الإمام التي وضعتها سائر الفرق فيما يتعلق بالعلم والعدالة، وهي تشبه أن تكون الدرجة المثلى لتلك الشروط التي إذا ما تحققت على الوجه الكامل اقترب حال من تحققت فيه من درجة العصمة بمفهومها الشيعي"[12].

ولكن النجار لم يبلغ في دفاعه شاو عبد الله علام مؤلف كتاب "الدعوة الموحدية بالمغرب" الذي ذهب إلى أن العصمة التى قال بها ابن تومرت هي سنية من حيث أنها لم تخرج عما أثبته أهل السنة للأنبياء من عصمة من الكذب والخيانة والجهل[13].

وهذه التبريرات التي يلجأ إليها بعض الباحثين المعاصرين في فكر ابن تومرت تتجاوز كثيرا ما رأيناه من انحياز ابن خلدون الذي ناقشنا دوافعه القوية، والتي لم تمنعه من أن ينكر على ابن

تومرت ما ذهب إليه من آراء شيعية في الإمامة انطلاقا من موقف ابن خلدون المنحاز للأشعرية.

المهدية:

وعلى غرار الشيعة الإسماعيلية دعا ابن تومرت إلى المهدي المنتظر مستغلا في ذلك الظروف التي يعيشها أهل المغرب في ذلك الزمان من انتشار للفساد و تعدد لمظاهره و كثرة الظلم و الجهل و قلة الحق وفشو الباطل، كما صورها بمبالغة زائدة وحمل المرابطين مسؤوليتها، فكل هذه الأوضاع كان ابن تومرت يزيد في تضخيمها و يحذر الناس من خطرها ويبشرهم بخروج المهدي المنتظر ليخلصهم من كل هذا الوضع المزري واصفا لهم أوصافه فيقول:"انه فرد زمانه، صادق في قوله، وانه يملأها بالعدل كما ملئت بالجور وأن أمره قائم إلى أن تقوم الساعة" ولم يكتف ابن تومرت بهذا بل غالى فيه فاعتبر أن السموات والأرض ما قامت إلا به وأن سنته هي سنة الله ورسوله، بل إن بموافقة ومتابعة المهدي تنال السعادة وبطاعته تنال الأجور العظيمة وأوجب اعتقاد كل هذا والتدين والالتزام به ما قامت الدنيا[14]

غير أن المهدي كان يتحاشى أن يصرح بأنه المهدي حتى في الخطبة التي بويع فيها بالمهدية التي لم يسند الأمر فيها إلى نفسه بصفة مباشرة وإنما قال: "الحمد لله الفعال لما يريد القاضي بما شاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ....و صلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، يبعثه الله لنسخ الباطل بالحق أن يملي مكان الجور العدل والمغرب الأقصى منبته وزمانه آخر الزمان والاسم الاسم والنسب النسب و الفعل الفعل "فلما رأى أصحابه هذا الوصف لا ينطبق إلا على نفسه بايعوه على ذلك[15].

ويذكر الدكتور عبد المجيد النجار أن إعلان ابن تومرت للمهدية كان سنة 515هـ لما استقر بالسوس وأنه لم يجد في مؤلفات ابن تومرت ورسائله ادعاءا صريحا من قبله للمهدية، وقد كان

في كلامه يلقب نفسه بألقاب مختلفة إلا لقب المهدي ومن ذلك ما جاء في إحدى رسائله: "محمد بن عبد الله العربي القريشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي"[15].

ولعل النجار لم ينتبه لما يذكره ابن القطان . وهو من مراجعه . من انه وقف "على نسخة صك كتبه رضي الله تعالى عنه للفقيه القاضي علي ابن أبي الحسن الجذامي أوله بعد البسملة والصلاة: أقول وأنا محمد بن عبد الله تومرت، وأنا مهدي آخر الزمان"[16]

وخلاصة رأي ابن تومارت في الإمامة أنها بعد أن انقضت مدة خلافة النبوة ثلاثين سنة بعد المصطفى صلى الله عليه وسلم، فأن الإمامة الحق بعد الخلافة الراشدة هي إمامة المهدي المنتظر الذي يعيد الحق إلى سالف عهده، مشيرا بذلك إلى نفسه تلميحا باعتبار أنه هو المهدي المنظر، فيكون بذلك قد افترق عن سائر الفرق في مستويات مختلفة تختص كل واحدة منها برأي في الإمامة فافترق عن الشيعة ابتداءا من الخليفة الأول الذي اعتبره أبو بكر ويعتبرونه عليا ، وافترق عن الخوارج في عثمان رضي الله عنه، وافترق عن أهل السنة والمعتزلة فيما بعد الخلافة الراشدة ليستقل برأيه في اعتبار الإمام المهدي الحق.

الهوامش

1. الأشعري،ابو الحسن،مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين:تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط 2،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1962،ج1 ،ص: 39
2. الشهرستاني،أبوالفتح:الملل والنحل،تحقيق احمد فهمي محمد،ط 1،دار السرور بيروت 1948،ج 1، ص:16
3. محمد ابن تومرت: أعز ما يطلب، تحقيق: د.عبد الغني ابو العزم، مؤسسة الغني للنشر،المغرب، 1997 ص:297
4. اعز ما يطلب، ص:298
5. اعز ما يطلب، ص: 302
6. اعز ما بطلب،ص :302
7. اعز ما بطلب، ص :302
8. اعز ما بطلب، ص :300
9. اعز ما بطلب ،ص:297
10. د. عبد الحميد النجار: المهدي ابن تومرت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1983 ص:251

11. ابن خلدون ،كتاب العبر ، دار الفكر، لبنان، 1988،ج 3
12. النجار: المهدي بن تومرت، ص:252
13. نفس المرجع،نفس الصفحة (الهامش96)
14. اعز ما بطلب ،ص:303
15. النجار، ص: 244
16. ابن القطان المراكشي: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق: د. محمود على مكي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط2: ص: 89